الديمقراطية ومعركتنا القومية

بقلم :
مروان ثابت

بادىء ذي بدء لا بد من الاعتراف ، بأنني واحد من الاكثرية التي اشار اليها الاستاذ معن بشور بمقالته القيمة (الديمقراطية هي الطريق) (١) ، والتي غمرتها موجة فرح عارمة لدى سماعها نبأ اطلاق حرية القائد الكبير احمد بن بللا ، الذي ارتبط اسمه بالقضية التي استشهد من اجلها مليون مناضل بطل ٠٠ قضية تحرير الجزائر من الاستعمار الاستيطاني الفرنسي ، واعادتها الى احضان الامة العربية باعتبارها جزء لا يتجزأ منها ، والذي كان المبادر الاول في اعطاء مثل حسي ملموس لابناء امتنا العربية عامة والشعب العربي الفلسطيني على وجه الخصوص ، على اهمية وضرورة وجدوى اسلوب الكفاح المسلح في مواجهة الاستعمار الاستيطاني ، ودحره ، وكانت مبادرة بن بللا ورفاقه والثورة التي تكللت بدحر المستعمر الفرنسي ، محفزا اساسيا من المحفزات التي شجعت وقادت الى ظهور المقاومة الفلسطينية التي اتاحت لنا جميعا شرف المساهمة في النضال من اجل قضيتنا العربية المقدسة ٠٠ القضية الفلسطينية !

دلالة المشاعر التي اثارتها المبادرة !

اثارت مبادرة القيادة الجزائرية لاطلاق حرية المناضل بن بللا ، موجة ارتياح واستبشار ليس بالوسع كتمانها او التستر عليها ٠ والامر الملحوظ انها (الموجة) لم تقتصر على فئات المثقفين وحدهم ، وانما شملت فئات واسعة من ابناء الطبقات الشعبية في وطننا العربي ، مما يطرح سؤالا ، اعتقد انه هام ، حول الدوافع التي حركتها المبادرة وطبيعة المشاعر التي اثارتها : أهي عواطف شخصية عابرة ، ام انها مشاعر تعكس رغبات وامنيات وآمال شعبية تتفاعل في اذهان جماهيرنا العربية ، وتبحث عن « رمز » يخرج معركتنا القومية والى حد ما الطبقية من المأزق الذي يأخذ بخناقها لدرجة ان المعارك الجانبية ضمن اطار الدائرة التقدمية والوطنية تكاد تطغى على المعركة الاساسية وتتحول التناقضات الثانوية الى تناقضات رئيسية ؟

اذا سلمنا بوجود عواطف حبيسة تجاه بن بللا ، بقيت محتفظة بحيويتها رغم تقادم اربعة عشر عاما عليها ، فلا بد ان نسلم فورا ، بأنها ليست عابرة ، وانما هي تعكس نمطا من الامال المعقود على هذا النمط من القادة والرواد الذين انجبتهم حركة القومية العربية الحديثة وثورتها الوطنية الديمقراطية التي صنع نموذجها الرعيم الخالد جمال عبد الناصر !٠٠

وبعبارة اخرى ، انها مشاعر كامنة في اذهان الجماهير عن مرحلة الخمسينات واوائل الستينات ٠ وهي بهذا المعنى ، تعكس نوعا من الحنين الى امجاد تلك المرحلة ، والتمني او الرغبة في تكرارها ، مما يكشف للعيان ان المرحلة الراهنة تفتقر الى الزعامة القومية الى الرمز الذي مثله عبد الناصر وبن بللا ، الامر الذي يضوع درسا على لوحة الواقع الراهن ، يجب ان تقرأه الزعامات والاحزاب والدول ، كي تتعلم شروط الزعامة القومية ٠٠٠ !

لسنا نبالغ ، ولا نحمل الامور اكثر مما تحتمل ، وانما نشير الى مرارة الواقع الذي نعيشه حاولوا ان تفترضوا عودة الملك فاروق او الملك عبدالله او الملك السنوسي او الملك فيصل او عبد الاله ، وقدروا ساعتها نوع مشاعر الكراهية التي ستثيرها عودة هؤلاء الملوك ، والتي ستكون مليئة بالاحزان وخيبة الامل والاستنكار والحزن والتشاؤم ٠٠٠

ثم حاولوا ان تفترضوا سقوط السادات والحسن الثاني والجسير وحكام السعودية ، وقدروا مشاعر الارتياح والبهجة والاعتزاز والتفاؤل ٠٠٠

وحاولوا ايضا ان تفترضوا عودة عبدالناصر ، وتصوروا انكم تسمعونه وهو يعلن تأميم قناة السويس او يخطب في الجامع الازهر داعيا لمواجهة العدوان عام ١٩٥٦ ، وبعد ذلك الافتراض والتصور تطلعوا الى الشوارع وشاهدوا الملايين وهي تهتف ناصر ٠٠٠ ناصر ٠٠٠ ناصر !٠٠

ما معنى هذا كله ، وما هي الزعامة القومية ، يا ترى ؟

معناه اننا نعيش فراغا قياديا رغم مليارات براميل النفط ومليارات الدولارات والخطب ورغم تضخم الامكانيات والقدرات المادية ، وتعدد الزعامات ومراكز القوى ٠٠٠

اما عن الزعامة القومية ، فعودة الى مرحلة الخمسينات وشاهدوا عبد الناصر : اصلاح زراعي ٠٠٠ كسر طوق السلاح بشرائه من تشيكوسلوفاكيا ٠٠ تأميم قناة السويس ٠٠٠ مجابهة العدوان الثلاثي ٠٠ اقامة الوحدة مع سوريا ٠٠

ستقولون ان كسر طوق السلاح قد اتسع الان واصبح السلاح السوفياتي في متناول الايدي ، وان التأميم قد اتسع وأصبح نفط العرب للعرب ٠٠٠ وان مجابهة اسرائيل قد تجاوزت الدفاع الى الهجوم وشن الحرب الرابعة ٠٠٠ وان الوحدة قد ضمت السودان وليبيا الى جانب مصر ، وسوريا والعراق واليمنين ٠٠٠ الخ ٠

ولكن عندما تفرغون من مراجعة هذه التطورات ستكتشفون انها لا تعادل تلك الانجازات المتواضعة التي حققها عبد الناصر !

اتعرفون ، لماذا ؟

لا تكمن اهمية صفقة السلاح التشيكي ، في الجانب العسكري ، وانما في كونها موجهة اصلا ضد الامبريالية واسرائيل والرجعية ولذلك شكلت تحد صارخ وكانت عاملا من العوامل الهامة لرفع معنويات الجماهير وشحن مشاعرها القومية واعتزازها بقيادة عبدالناصر ٠ هنا يكمن الفارق بين تلك الصفقة المتواضعة ، وبين اكوام وأكداس السلاح المتوفرة اليوم في مخازن لحكومات والزعامات الرسمية ٠

لقد جابه عبدالناصر العدوان الثلاثي بطاقات الشعب المصري ووزع ما يقرب من مليون قطعة سلاح على الشعب ، ووقف يخطب في جامع الازهر تحت وابل قنابل بريطانيا وفرنسا واسرائيل ، ونجح في ردع المعتدين واجبرهم على الانسحاب ٠٠ في حين ان الحرب الرابعة ، انتهت الى كعب ديفيد وفتحت ابواب القاهرة امام بيغن !٠٠

(١) راجع عدد السفير ٧٩/٧/٧

ولست بحاجة لان اطيل ، فالامر نفسه عن الفارق بين تأميم قناة السويس وتأميم النفط ووحدة مصر وسوريا والوحدات الاخرى ٠

اذن ، فان الزعامة لا تتحقق بمجرد استلام السلطه او تحقيق المنجزات ، وانما هي تتحقق عندما تكون السلطة والمنجزات مكاسب تمتلكها الجماهير وادوات تعكس مشاعرها وتعبر عن ارادتها !٠٠

وقد نجح عبد الناصر ونجح بن بللا في استخدام السلطة والمنجزات التي حققاها ، من اجل الوصول الى الجماهير ، في وقت ان الزعامات والقيادات والحكام القائمون ، فشلوا في اشغال الفراغ الذي تركه عبد الناصر ، رغم السلطة التي في ايديهم ورغم المنجزات التي حققوها

مرة اخرى ، لماذا ؟

ان الجواب يكمن في طبيعة المرحلة ، فقبلا كانت زعامة عبد الناصر وبن بللا صاعدة وغير مثقلة بأعباء السنوات الثلاثين المنصرمة ودروسها المخيفة لكل الذين تستعبدهم السلطة ٠٠٠ وقبلا كانت زعامة عبد الناصر وبن بللا ، تنجز ثورة للجماهير ، وغير مثقلة باعباء الانجازات والتطورات التي استنفدت طاقات القوى الطبقية التي نهضت بمرحلة الثورة وشقت طريقها ٠٠٠ وقبلا كانت الجماهير تصفق للاصلاح الزراعي ولشراء السلاح من البلدان الاشتراكية وتأميم قناة السويس ٠

اما اليوم فانها (الجماهير) تطلب الديمقراطية والاشتراكية واستخدام السلاح ضد اسرائيل وقطع النفط عن اميركا ٠٠!

من هنا يمكننا تحديد طبيعة مشاعر الارتياح والبهجة التي اثارها قرار قيادة الثورة الجزائرية ، بأنها تعبير عن « رغبات وامنيات وآمال شعبية تتفاعل في اذهان جماهيرنا العربية » نتيجة الخراطها وعيشها في ميدان المعارك الشرسة والمصيرية التي خاضتها حركة الجماهير العربية ضد اعدائها القوميين والطبقيين على امتداد الحقبه الزمنيه الماضية !

وعندما توصف هذه المشاعر ، بانها « رغبات وامنيات وآمال شعبية »٠٠ فان هذا النعت يحدد طبيعتها (المشاعر) بأنها تقدمية ووطنية ، لان امنيات الجماهير العربية وآمالها ، لا يمكن ان تكون الا مناهضة للاستعمار والصهيونية والرجعية على طول الخط ، وبما انها معادية لاعدائها القوميين والطبقيين ، فانها لن تكون الا تقدمية ووطنية على طول الخط ايضا !

ولكن الاعتراف بتقدمية ووطنية مشاعر الارتياح والابتهاج التي اطلق عنانها نبأ اطلاق حرية رمزها (المشاعر) وعودة بطلها (بن بللا) يثير ملابسات تمس بومدين شخصيا وسائر القيادات الرسمية والشعبية الموجودة حاليا والمسؤولة عن ادارة وتوجيه المعركة القومية بحكم المراكز التي تشغلها والامكانيات المتوفرة لديها ، مثلا : هل ان الرئيس الراحل بومدين ليس تقدميا وليس وطنيا ، طالما نه هو الذي سبب كبت مشاعرنا التقدمية والوطنية تجاه رمز من رموز كفاحنا العربي ؟ ثم هل ان ربط حرية بن بللا بقضيته الديمقراطية ، تعني ان الحكام العرب ليسوا ديمقراطيين رغم كلامهم الكثير عن الثورات والانجازات والمعركة التي يقولون انها ستحرر القدس وفلسطين المغتصبة ؟

فيما يتعلق بالسؤال الاول ، لا بد من ازالة اي لبس حول تقدمية ووطنية الرئيس الراحل بومدين ، اذ تابع الرجل اسهام الجزائر في المعركة القومية وكان الى جانب عبدالناصر اثناء هزيمة ١٩٦٧ ، كما كان احد الاقطاب المؤسسين لجبهه الصمود والتصدي وابرز المناهضين لخيانة السادات وارتمائه بأحضان اميركا واسرائيل ٠٠٠

ولكن اذا تجاوزنا تسجيل هذه الحقيقة ، فلا بد من الاعتراف بأن عملية احتجاز بن بللا ، بل ان الاطاحة به عملية ليس لها ما يبررها اطلاقا ، اذا ما حاكمنا الموضوع من زاوية غير ذاتية ، بشهادة الوقائع التي هي اشياء عنيدة ٠ فحين نراجع عهد الرئيس الراحل بومدين ، لا نجد انه فعل اكثر من الاستمرار على نهج سلفه ان لم يكن اقل واذا حاولنا التدقيق فسنجد ان الثورة الجزائرية تضررت من عملية الاطاحة بزعيمها وقد عانت قيادة بومدين من ذلك الضرر كثيرا قبل ان تتمكن من استعادة زمام المبادرة التقدمية والوطنية التي كادت تفقدها بسبب الخضة الناجمة عن اسقاط سلطة بن بللا ٠

لذا فان اعتبار مبادرة القيادة الجزائرية ، خطوة على الطريق السليم ، وعملية تصحيح لخطأ ما كان ينبغي ان يقترف ، لا يعني ان الرئيس الراحل بومدين قد خرج عن اطار النهج التقدمي الوطني الذي رسمه بن بللا ، خاصة اذا ما نظرنا الى الموضوع من زاوية مقارنة ما فعله السادات بعد عبد الناصر ٠

ان فراغ الزعامة القومية الذي تشعر به الجماهير العربية ، امر ملموس لكل ذي عينين ، ويكفي للتدليل عليه ، ليس فقط بموجة الارتياح التي تحظى بها قضية حرية بن بللا ، وانما بوسع القيادات القائمة ان تحاول فعل ما كان عبد الناصر او الخميني ايام الشاه يفعله : كان عبد الناصر يحرك جماهير الامة العربية من المحيط الى الخليج بخطاب من القاهرة ، وكان الخميني ، بنداء من باريس ، يحشد الجماهير في شوارع ايران ضد سافاك الشاه وجيشه ٠ فهل بوسع زعامات اليوم ان تفعل مثل هذا ؟

ان طريق الزعامة الى الجماهير باتت مقرونة باطلاق الحريات واباحت الديمقراطية للجماهير الشعبية ، وبدون اللجوء الى هذه الوسيلة فان العزلة سوف تتابع التفافها حول مواقع زعامات اليوم حتى تقضي عليها !

ان معركتنا القومية الراهنة ، وفي ظل اختلا لموازين القوى ، باتت تحتاج اكثر من ذي قبل الى طول المدى والنفس ٠ ومعلوم ان الحروب الطويلة تعتمد اكثر ما تعتمد على الجماهير ٠ ومعلوم ايضا ان جماهيرنا العربية ، باعتبارها اهم طاقات معركتنا القومية مقيدة ومعطلة ٠

ان الذين يفكرون في خوض المعركة ضد اسرائيل بالاعتماد على ارقام الدبابات والطائرات والصواريخ لا يصلحون اطلاقا لقيادة المعركة ، لسبب هام جدا ، نلحظه بما يقال ويشاع عن امتلاك اسرائيل للقنابل الذرية ٠ القيادات الحالية تشكو من عدم امتلاكها طائرات متطورة لمواجهة الـ (اف ١٥) وعلى افتراض انها امتلكت ميغ ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٠٠٠ الخ ، ولكن من اين لها امتلاك القنابل الذرية ؟

اجمعوا السلاح على مختلف انواعه واعدوا الجيوش ولكن ذلك كله لن يعطي اكثر مما اعطته الحرب الرابعة ٠ ولذلك فان موازين القوى لن تتغير لصالحنا ما لم ندخل في حساباتنا طاقات الجماهير ونبني تخطيطنا على اساسها ٠ تذكروا الفراغ الذي ملأته المقاومة الفلسطينية بعد هزيمة ١٩٦٧ ، وقارنوه بالضياع الذي اعقب هزيمة ١٩٤٨ وحرب تشرين ، ولاحظوا ان المقاومة كانت